مصطفى جواد . حياته ومنزلته العلمية

تأليف د. محمد عبد المطلب البكاء

عرض وتلخيص
انور عبد الحميد الناصري

وَرَبَّكَ : ان دار الشؤون الثقافية العامة جديرة بالتهنئة والاعجاب ، خليقة بالشكر والعرفان ، على ما تطالعنا به من كتب ومصنفات وآثار ، تستقيم وتتنوع على صعيد الادب واللغة والتاريخ والفن والشعر والفلسفة وشتى جوانب المعرفة الاخرى .

واملنا انها ستظل تجتاز العوائق بوثبات سريعة ، فيتوسع ما تنشره ويتكاثر الى الاضعاف

ومما اخرجته مطابع هذه الدار المباركة ـ قبل مديدة ـ ، الكتاب النفيس الذي اعتنى مؤلفه الاستاذ الدكتور محمد عبد المطلب البكاء ، بتقييد حياة عالم جليل هو الدكتور مصطفى جواد . وهو الكتاب الذي ارجو ان اوفق الى تدبير استعراضه في قراءة مختصرة ، تستخرج زبدته ، وتظهر بعض لمعه ، ثم اودع في آخرها بعض خواطري وآرائي ، اذا اذن لي المؤلف الفاضل ، واظنه سيفعل ان شاء الله تعالى ، وايضاً اذا جاز لي ان ابث ارائي في مثل هذا المقام .

والراجح في معرفتي ان هذا الكتاب هو (اكمال الاكمال) للكتاب الذي نشره الاستاذ البكاء نفسه عن هذا العالم الكبير قبل اكثر من عشرين عاماً ، تحت عنوان « مصطفى جواد وجهوده اللغوية » .

وهذان الكتابان ، او الكتاب الواحد نو القسمين ، اندى ما قدمه المؤلف السموح الى المكتبة العربية محبي العربية .

جزاه الله عن (العربية) محبيها الخير والثواب .

*

ياصديقي القاريء ، لايوازي امساكي بك ، الا ان استحثك لمرافقتي ، لكي نستغرق معاً في دراسة هذا الكتاب القيم النافع .

واول ما سنقرأ منه ، فهرسه ، اي (مفتاحه) نزولاً على قول الاستاذ الشيخ محمود محمد شاكر ، « مفتاح كل كتاب ، فهرس جامع ، فاقرأ الفهرس قبل كل شيء » .

*

الكتاب نو فصلين ، الاول منهما تحت عنوان (حياته وثقافته) وهو يتفرع الى ثلاثة اقسام الاول (مولده ونشاته) والثاني (ثقافته) والثالث (شعره) ، اما الفصل الثاني فعنوانه (منهجه ومنزلته العلمية) وهو نو ثلاثة اقسام ايضاً ، الاول بعنوان (في اللغة العربية ومشكلاتها) والثاني بعنوان (في النحو والصرف) والثالث بعنوان (في التاريخ وتحقيق النصوص)

ومن مقومات التيسير والموازنة والتواصل المنهجي ان نحفظ للكتاب فهرسه ونلتمس الانسجام معه ، فيما ستنبط من قول .

فلا خلاف في ان ولادة مصطفى (ابن اسطة جواد خياط الجبب المشهور) كانت في محلة القشل ببغداد ، اما تاريخها فيلفه الاختلاف ، ولم يكن الرجل نفسه متثبتاً منه ، الا ان الدكتور البكاء رجح انه من مواليد ١٩٠٤ م مستدلاً ببعض الوقائع والشواهد .

اما اهله وأصله فمن (قرمتية) احدى قرى محافظة كركوك . ويبدو أن السعي وراء الرغيف جعله ينتقل مع ابيه من بغداد الى دلتاوة . وهناك تعلم الابجدية وحفظ القرآن ثم عمل راعياً للغنم وفلاحاً ثم عاد الى بغداد ليكمل دراسته الابتدائية . وكان لالتماع ذكائه وقابلياته في الحفظ ماشجع بعض معلميه على توجيهه نحو اكمال دراسته وتحصيله ، فدخل دير المعلمين الابتدائية وتخرج فيها وعين معلماً في بعض المحافظات ثم استقر في بغداد ، وتعرف الى الاب انستاس ماري الكرملي فلازم (مجلس الجمعة) الذي كان الكرملي يقيمه في دار الآباء الكرمليين ، فانتفع بمكتبة الكرملي كما افاد خبرة وعلماً من لقاء بعض رواد المجلس من العلماء وهنا في ١٩٢٨ بدأت مشاركته في مجلة لغة العرب التي اصدرها الكرملي سنة ١٩١١ ، والتي تعالج اللغة والادب والتاريخ العراقي .

تنويه واعتزاز : ورد اسم عمنا رجل المعارف يوسف عزالدين الناصري كاحد الذين رأوا في مصطفى جواد الفطنة والنباهة فتحفزوا لرعاية الشاب (المأمول) امانة للعلم وعلى غير غاية .

ولمثل هذه الامانة والنزاهة اخبرني المفكر العراقي الدكتور علي الوردي ان رجل المعارف (يوسف عزالدين الناصري) هو الذي هيأ له سلم الطموح العلمي ليرتقيه .

*

ولما اشتهر امر مصطفى جواد . وذاع اسمه ، رشحته وزارة المعارف في بعثتها الى فرنسا سنة ١٩٣٤ .

وفي باريس تفتحت في وجهه افاق جديدة من حيث الدراسة

العميقة وكان لتوجيه الميرزا محمد القزويني ، احد رجال العلم الاعلام ، اثر كبير في حياة مصطفى جواد العلمية .

وبعد ان ظفر بشهادة الدكتوراه عاد الى العراق وعين مدرساً في دار المعلمين العالية عام ١٩٢٩ ، وسمي لتعليم الملك فيصل الثاني ، ثم عاد الى الكلية وبقي فيها حتى انتابه مرض القلب فاضطر الى التدريس .

في هذه الحقبة ظلت جهوده ـ بالبحث والتحقيق العلمي ، ونالت الاعجاب من ابن الباحثين والعلماء في العراق والبلاد العربية والاسلامية ، فعرف علماً من اعلام القرن العشرين في اللغة والتاريخ العربي الاسلامي . وفي هذه الاثناء ايضاً ملأت كتاباته كثيراً من المجلات العراقية والعربية . وانتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي منذ تأسيسه واسهم في تحرير مجلته . كما انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة . وزادت من شهرته الاحاديث والندوات الثقافية الشائقة التي قدمها في تلفزيون بغداد والاذاعة العراقية .

ومن الجوانب اللماعة في الرجل ان له اهتمامات فنية ، فقد كان مولعاً بمشاهدة الافلام السينمائية ، وله (ثقافة) واسعة اطلاع وتقييم في الافلام الممتازة منها . ومن طريف ما اتذكره انه حببت الي مشاهدة احد الافلام لانه حاز على اربعة نجوم .

وكثيراً ما شوهد وهو يمعن النظر في بعض صور الافلام التي كانت تعلق على جدران مداخل السينمات في الاربعينيات والخمسينيات .

وما دمنا في ذكر صفات الرجل وسجاياه فلابد ان نضع في الصدارة تواضعه الذي هو من ابين صفات العلماء وكذلك اريحية طبعه وخفة روحه وحلاوة نكته وظرفه ، كما ان جهارته بالتصحيح وابطال الخطأ من الزم ما تضم اراؤه الصريحة وان جرّت عليه السخط وعدم الرضا . واذا رمنا تاجاً لمزاياه فان اهم مايميز شخص هذا العالم انه لم يكن ضنيناً بعلمه بخيلاً بمعرفته .

واخيراً شاء القدر ان يصاب الرجل في سنواته الاخيرة بمرض القلب ولم يجده العلاج والدواء وظل يحمل الاسى والاذى بصبر وجلد ، كما ظل حتى في ايام مرضه يتسلى بالمراجعة والتأليف والنقاش .

وفي عشية يوم الاربعاء ١٧ كانون الاول سنة ١٩٦٩ فاضت روحه الطاهرة وفارق دنيا الناس .

وشق نعيه على اصدقائه وتلاميذه والعلماء والمثقفين والمجامع اللغوية والعلمية وفي حفل تأبينه تبارى الشعراء والخطباء في رثائه وبيان فضائله ، مصطفى جواد الظاهرة التي ربما لايجود الزمان بمثلها في المستقبل .

*

هاقد وصلنا الى القسم الثاني ثقافته :

مصادرها :

ان مصادر ثروة مصطفى جواد اللغوية والنحوية هي :

١ ـ حبه الشديد للغة العربية

٢ ـ احاطته الشاملة لاغلب ما في هذه اللغة من اسرار .

٢ ـ اشتغاله بتعليمها اكثر من خمس واربعين سنة . يعيش مشكلاتها ومشكلات دارسيها عن قرب .

مصادر ثقافية

يمكن ارجاعها الى اربعة مصادر :

١ ـ البيئة

بدأ بالقرآن على يد (العلة صفية) في دلتاوه ثم مدرسة دلتاوه الابتدائية ثم حضر الماتم الحسينية في الكاظمية حينما التزم بقيادة والده اليها بعد ان كف بصره ، وهناك سمع مراثي الشعراء الكبار ومدائحهم كالكميت والشريف الرضي وابي فراس وعشرات غيرهم . فحفظ الشيء الكثير مما سمعه .

٢ ـ اساتذته

تعد المدرسة الابتدائية في دلتاوه اللبنة الاولى في البناء الذي سيعلو شامخاً على ايدي الشيخ شكر في المدرسة الجعفرية الابتدائية ثم ايد اساتذته في دار المعلمين طه الراوي واحمد الراوي ومدير الدار يوسف عزالدين الناصري .

٣ ـ مجالس العلماء ومكتباتهم

وعلى الرأس مجلس الاب انستاس ماري الكرملي ومكتبته العامرة ، ثم اجتهاده الذاتي وهو معلم في المحافظات ، ثم مجلس الميرزا محمد القزويني ومكتبته الغنية في باريس

٤ ـ اجتهاده الذاتي

استمراره على اجتهاده الذاتي منذ ان كان طالباً في الابتدائية حتى آخر ايام حياته .

اسلوبه

يسود اسلوب كتابته الكثير من الخشونة والغلظة ، ولعله كان يسلك هذه السبيل اقتداءً بالكرملي ، الذي كان يتحين الفرص ويتصدى لكل مؤلف وكتاب ، يمحصه ويرد عليه ، ولعل نقد مصطفى جواد يصل الى حد السخرية والزراية وربما التهكم والتجريح .

واسلوب الدكتور جواد لايخلو من الجفاف والتوعر ، وجمله غالباً ثقيلة على الاسماع والالسنة ، وانه غير مشرق الديباجة وغير واضح .

آثاره

ترك الدكتور مصطفى جواد ثروة ضخمة من التأليف (المطبوعة) منها ما وضعه بنفسه ومنها ما شارك فيه غيره ، فضلاً عن مئات المقالات والدراسات في عشرات المجلات والجرائد ، كما ترك مؤلفات مخطوطة كثيرة في شتى المواضيع ، ويطول بي المقام اذا عددتها واكثرها معروف ومشهور بين الناس .

بعد هذا نصل الى القسم الثالث وهو :

شعره

وقد عمد الدكتور البكاء لنشر نماذج كثيرة من شعر الاستاذ مصطفى جواد ، وذكر ان غرض شعره في بداياته هو الوصف ثم انتقل الى الغرض الوطني القومي ثم السياسي ثم الاجتماعي .

كما نظم اقاصيص شعرية ونظم بعض الرباعيات والموشحات ، وله شعر فيه الدعابة والفكاهة .

وشعره عموماً كان شعر العلماء الذي يحوزه الانطلاق من القيود اللغوية ، الثقيلة ويسوده المنطق والدليل اكثر مما تسوده السلاسة ورقة العاطفة »

*

ثم نخلص الى الفصل الثاني وهو

« منهجه ومنزلته العلمية »

وهذا الفصل يفوق الفصل الاول اهمية واصالة وقصدا ، لانه ينصب على الاراء المتفردةالجديدة ، والاستنتاجات الاصيلة الرصينة ، المبنية على نضج الدراية وسداد الفكر وبراعة المواهب وعمق التفهم والتقدير .

لذا فلا اظن ان في وسعي انتهاج ما الزمت به نفسي في عرض واختصار هذا التراث او الاحاطة بالمشكلات التي زخرت بالتعقيد والاشكال ، فيقتضيها الاستنارة المستفيضة والدراسة الطويلة ، لاقصور الاختصار والتماس الاجمال .

*

القسم الاول من هذا الفصل

(في اللغة العربية ومشكلاتها) :

ان تبيان منهجه في النحو واللغة يعتمد على موقفه من اسس المنهج اللغوي في السماع والقياس

١ ـ السماع وهو الطريق الطبيعي لتعرف كنه اللغة وقد اخذ به الدكتور وتوسع على مذهب اهل الكوفة المعتمد على الراويه والنصوص اي على الاستشهاد بكتاب الله العزيز والحديث الشريف والنثر والشعر .

أ ـ القرآن الكريم : هو حافظ اللغة العربية ولذلك قرر وجوب دراسته لغوياً ونحوياً .

ب ـ الحديث الشريف : وقد ذهب الى الاستشهاد بالصحيح (المروي فقط) .

جـ ـ الشواهد الشعرية والنثرية : واستشهد بشواهد شعرية ونثرية من كلام العرب الفصحاء .

٢ ـ القياس : تمسك الدكتور مصطفى بمذهب الكوفيين اي الاعتداد بكل ما روي عن العرب والقياس عليه .

مشكلات اللغة العربية :

يرى انها مشكلات مختلفة عسيرة الحل صعبة العلاج . وقد تصدى لاغلبها بغية تذليلها كما حظي النحو بالكثير من مقترحاته .

المصطلحات العلمية ـ افتضت النهضة الحديثة الى معرفة الوف الكلمات الجديدة في الميكانيك والطب والكيمياء التي ما برحت تنتظر اصطلاحات عربية تقابلها . وتعرض لمشكلة (التعريب) الذي يجب ان يكون واضح المعالم محدوداً ومقصوداً على اسماء الاعلام واللباس والامراض لان كثرة التعريب اذلال للغة العربية .

اما (النحت) فيرى اللجوء اليه عند الاضطرار لانه نادر ويشوه الكلمات .

المعجمات اللغوية :

شخص مشكلاتها بدقة واتقان ، واتجه لنقد معجم لسان العرب ، ونقد كتاب العين والمصباح المنير كما نقد المعجمات الحديثة والف معجمه الموسوم (المستدرك على معجمات اللغة العربية) كما الف معجماً للمولد من الكلم والتعابير ، كما نقد تحقيق (الاغاني) طبعة دار الكتب المصرية ونقد (خريدة القصر وجريدة العصر) و (الهفوات النادرة) وغيرها من الكتب كما عني بالاغلاط اللغوية الشائعة والف في هذا كتابه المشهور (قل ولاتقل) الذي استدرك عليه تلميذه الاستاذ صبحي البصام كما ناقش بعض تلك الآراء الاستاذ محمد البكاء .

مشكلة التعبير العصري وقد اولاها عناية خاصة وقسمها الى كفائية واستعارية وحقيقية .

اما القسم الثاني فعنوانه (في النحو والصرف)

النحو العربي :

تندرج المسائل النحوية التي عالجها الدكتور مصطفى جواد تحت قسمين : اولهما مسائل عامة كانت مثار خلاف بين نحاة البصرة والكوفة . وثانيهما جملة استدراكات وتعقيبات وتخطئة لبعض الكتاب القدامى والمعاصرين .

وفي هذين القسمين خاض الدكتور مصطفى جواد بحراً ولم يغرق وجاءنا من لججه بكل الدر النفيس .

ومن امثلة القسم الاول البحث في اصل المشتقات والجدل في اسبقية المصدر او الفعل . وكان رأيه مخالفاً لاغلب النحاة معتمداً على الادلة . وكذلك مسالة التعدي واللزوم وله فيها مقترحات فكان هذا المبحث جديداً لم يطرقه العلماء من قبل .

وكان له رأي في (اسماء المفعولات) ونيابة حروف الجر بعضها عن بعض .

كل ذلك بتفاصيل وشواهد كثيرة لايمكن اختصارها وبامكان اهل الاختصاص مراجعتها .

ومن امثلة القسم الثاني تعقيبه على ابن جني في مسالة تقدم الضمير ، وعلى جلال الدين السيوطي في (باب التنازع) ولم يقف عند نقد بعض كتب الاقدمين وانما تصدى للاوهام الشائعة التي اراد بها الغلطات المطبعية الذائعة ، مما اورده في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وهناك مسائل كثيرة تعرض لها كذفي افعال الاستمرار الماضية واسم لا النافية للجنس ونصب المستثنى بالا وحذف الخبر بعد حيث وبرغم اهمية آراء الدكتور مصطفى جواد والتي تفرد بها واعتمد على قدرته في استنباط الاحكام والاجتهاد فيها ، فيرى الاستاذ البكاء انه اضاع كثيراً من جهده حين ترك معالجة نحو اللغة العربية بشكل كامل .

الصرف .

وهنا ايضاً بذل الدكتور مصطفى جواد جهداً علمياً صادقاً في دراسته لبعض مسائل الصرف ومنها (المطاوعة) واوزانها و (اسماء الآلة والاداة) و (المصدر الصناعي) و (النسبة) وجواز النسبة الى الجمع .

والقسم الثالث جاء تحت عنوان (في التاريخ وتحقيق النصوص)

التاريخ العربي : رسم الدكتور مصطفى جواد لنفسه منهجاً يعني بتحقيق مفردات الاحداث وجزيئاتها وقد اهتدى الى مالم يهتد اليه الباحثون فوقف على ما لم يقفوا عليه .

ووفق هذا النهج مع سعة اطلاعه في التاريخ وفروعه ، عزز من قيمة الكتب العلمية التي حققها كتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى والتجارب النافعة وغيرهما من الكتب ، كما جلا الكثير من الغموض في العصور العباسية لاسيما المتاخرة بحكم معرفته بخطط بغداد .

وقد نالت المرأة في التاريخ نصيباً فالف (سيدات البلاط العباسي) وسيدات البلاط الاموي وهو مخطوط

وكما اولى اهتمامه وعنايته الفائقة ببغداد وتاريخها ، فانه اعطى المغرب العربي حقه من المتابعة والدراسة . فعاش تاريخ الامة العربية مشرقه ومغربه .

ومن الميادين الاخرى التي برزت فيها موهبته وسعة اطلاعه ميدان تحقيق النصوص كتحقيقه (تكملة اكمال الاكمال) وغيره وكان له منهج علمي متميز وله في هذا الجانب آمالي سماها (امالي مصطفى جواد في فن تحقيق النصوص) على ان ميزته التي تفرد بها في هذا الميدان هي حرصه الشديد على استكمال الفائدة واصلاح النقص الحاصل في بعض الكتب .

واتبع النهج نفسه في الكتب التي ترجمها من الفرنسية مع جهد في الاضافة والتعريف والشرح والتعليق .

مداخلة :

١ ـ عنى الدكتور البكاء بصفات الرجل العالم فقال « انه عرف بتواضعه الذي هو من ابين صفات العلماء » واضيف الى هذا فضيلة « الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه » .

وتخطر على بالي هذه الحكاية :

ففي اوائل الخمسينيات من القرن المنصرم جمعتنا الوظيفة في دائرة انحصار التبغ انا والشاعر عبدالرحيم الهيتي والاستاذ صاحب ذهب (الدكتور بعدئذ) ، والاديب الذواقة ميمد حسين العلاق .

وكان وقت انفراغ اكثر من وقت العمل ، فحرصنا على جعل ساعة منه مجلساً ادبياً صغيراً نتذاكر فيه بعض شؤون الادب والثقافة ، واذا استحكم بيننا الخلاف والجدل لجانا الى حكام ارتضينا حكومتهم هم كل من الدكتور مصطفى جواد والدكتور عبدالرزاق محيي الدين والدكتور ناصر الحاني والاستاذ محمد بهجة الاثري .

وفي يوم ما وضعنا على منضدة الجدل هذا السؤال : هل حري بمن يفهم المعنى ان ينفذ الى الاعراب الصحيح ام التثبت من الاعراب الصحيح سبيل الى معرفة المعنى ! وكانت المسألة في هذا بيت المتنبي :

طِوالٌ قنا تطاعنها قصارٌ وقطركُ في وغى وندى بحار

واعراب البيت (الاول وهلة) ان طوال مبتدأ وتطاعنها فعل ومفعول به وقصار فاعل تطاعن ، ويكون المعنى المستبين ان (قناة طويلة تطاعن قناة قصيرة) وهو معنى سخيف يتعالى عليه المتنبي وهو يمدح سيف الدولة .

اما الاعراب اليقين فان طوال مبتدأ وتطاعن فعل وفاعل وقصار خبر للمبتدأ طوال . فتكون (النشوة) في المعنى الشريف ان القناة الطويلة تصبح قصيرة غداة تطاعنها ياسيف الدولة .

قمت الى الهاتف استطلع رأي حكامنا الاربعة .. كلهم اعربوا صدر البيت الاعراب الساذج واقروا المعنى المتهافت البائر .

وبعد النقاش الدائب لدحض ماذهبوا اليه نزل اثنان منهم (عن البغلة) اما الثالث فزاد في (عناده) قوله (....) ، اما الدكتور مصطفى جواد فتعال انظر بشاشته من وراء الاسلاك ، واستمع الى ماسخا عليّ من كلمات المكافاة والسداد وكيف انبرى لاعلان شكره وفرط اعجابه برصانة الاعراب والمعنى .

٢ ـ اشتمل الكلام على شعر الدكتورمصطفى جواد ، كلمة انطباع سجلها الدكتور صفاء خلوصي .

اضيف هنا انني سمعت من الدكتور مصطفى جواد قصيدة يشكو فيها ظلم الايام مطلعها :

زمـن .... وحظ عـاثـر فلذا خبت وما نلت المراد

وقد وددت ذكرها ـ للتوثيق ـ ليس الّا ، مثلما فعل الاستاذ البكاء كما احسب ، وقد وددت ايضاً لو ان المؤلف الكريم اكتفى بنشر (عيّنات) منه شواهد على تعدد وجوه المعرفة عند الدكتور جواد ، مضيفاً ان الرجل لم يكن شاعراً مطبوعاً وان (شيطان شعره) لم يلهمه العذوبة والحلاوة والليونة والطراوة فجاء اكثر شعره من « النظم الذي لاغناء فيه » .

٣ ـ لم استطع ان انكر وقوفي غير صدق من خشونة نقده ، ولم اقتنع ان حرصه على العربية والتاريخ يدفعه الى وصف (الخاطىء) او (المخطىء) بالجاهل والغافل . وكم كان املي ان سجاياه الحميدة تعصيه فلا (يفقأ عيون احد) ثم (يذر الفلفل فيها امعاناً في الايلام والاذى) .

٤ ـ ترك الدكتور مصطفى جواد كتباً وكراريس وتعقيبات مخطوطة واضم صوتي الى الاصوات التي تناشد المسؤولين بضرورة شرائها من ورثته ونشرها خدمة للتاريخ واللغة وخوفاً عليها من الضياع .

وبعد :

فالكتاب الذي وصفته كما مرّ ، تتمة لكتاب المؤلف السابق عن الدكتور مصطفى جواد ، وكلاهما يكونان سفراً نفيساً عن سيرة هذا العالم الكبير وارائه واستدراكاته ودلائل وجهات نظره ووجوه تفسيرها وتمحيصها على صعيد اللغة والتاريخ والخطط .

وان مصنفاً بهذا النسج والتبحر والتبصر والعناية والتوثيق ، ثمرة جهد جهيد لايحوزه او يتجشمه الّا ذوو المقدرة والاطلاع من الرواد والمجلين .

فسلام على الاستاذ الدكتور محمد عبدالمطلب البكاء في المؤلفين المجودين وسلام على الدكتور مصطفى جواد واحد عصره ونادر زمانه الذي لم يسد مسده لغوي أو مؤرخ حتى اليوم .